

من اسرار المتفوق الامريكى

ا.د.حامد طاهر

احسب ان احدا لا ينكر مظاهر التفوق الامريكى فى شتى مظاهره: العسكرية والسياسية والاقتصادية والعلمية والاستخباراتية.. الخ ، فاذا حاولنا بحث اسرار هذا التفوق وجدناها كثيرة ومتنوعة ، بعضها مادى يرجع الى طبيعة الارض الغنية التى تشغلها امريكا ، وبعضها الاخر بشرى يتصل بكفاءة الافراد الذين استوطنوا

هذه المارض ونجحوا في تعميمها .

واريد في هذا المقال ان اتناول كفاءة المامريكان ، ليس من ناحية حبهم للعمل ، وميلهم للمغامرة ، وتشجيعهم للتجديد ، وتكريمهم للمبدعين ، وانما من ناحية خلفيتهم الفكرية والفلسفية المستقرة في عقولهم ، والتي تنعكس بالضرورة على حياتهم النشطة التي تفاجئ كل من يزور امريكا ويرى مدنها تموج بالحركة والحياة بالليل كما بالنهار .

ومن المعروف ان هذه الفلسفة تسمى (البراجماتية) ومؤسسها هو وليم جيمس (1842 — 1910) : فيلسوف امريكي استوعب التراث الفلسفي السابق عليه ، وتأثر ببعض اعلامه وافكاره ، لكنه ظل مرتبطا بالواقع، فلم يحلق في نظريات مجردة ، او اراء لا يمكن تطبيقها ، وانما قام باستخلاص نظرية فلسفية تقوم على اساس ان الفكرة الصحيحة هي ما يمكن تطبيقها في الواقع لخدمة الانسان ، وبالتالي فان الفكرة الخاطئة هي التي لا يمكن تطبيقها في الواقع ، وامتدادا لذلك فانها اذا طبقت تضر بمصلحة الانسان .

وهكذا استبعد وليم جيمس من فلسفته كل الافكار الهلامية التي تناقض امورا ومساائل لا يمكن للعقل الانساني ان يصل اليها فضلا عن ان يتحقق من صحتها . ولكي يوضح ذلك اشار الى مسألة وجود العالم او نشأته التي انقسمت الفلاسفة حولها الى فريقين : فريق يرى ان العالم نشأ بالصدفة نتيجة اجتماع ذرات كانت متناثرة على نحو معين ثم تطور عبر ملايين السنين الى الوضع الذي نراه عليه حاليا . ويُذهب الفريق الاخر الى ان العالم انما انشأه الله حكيم قادر ، وهذا ما اكدته كل الاديان السماوية . وعندما يفحص وليم جيمس هذين الرايين يقول اننا لا يمكننا بعقولنا الانسانية ولا بوسائلنا العلمية ان نغوص في الماضي السحيق للوقوف على حقيقة هذا الامر ، لذلك علينا ان نترك هذه المسألة ونتجه مباشرة لمواجهة العالم الموجود حاليا كما هو : ندرس ظواهره ، ونستفيد من خيراتهم لمصلحتنا ، بدلا من النقاش والاختلاف حول مسألة عويصة او مستعصية على العقل الانساني .

ان فلسفة وليم جيمس تستبعد الجدل العقيم الى الذي لا يؤدي الى نتائج محددة ، والمسائل التي لا يستطيع العقل الانساني بقدراته ووسائله ان يثبت صحتها في الواقع ، وهذا هو السبب الذي جعل الفلاسفة السابقين يختلفون ويتصارعون حولها بدون فائدة، ومن الممكن ان يستمر غيرهم كذلك الى ما لا نهاية .. ولو انهم وجهوا عنايتهم لبحث الواقع الذي يحيط بهم ، واستخلصوا منه النتائج المفيدة لوضروا علينا وعلى انفسهم هذا العناء الفكري ، ولقدّموا للانسانية افكارا اكثر جدوى من الناحية العملية .

وبالنسبة الى وضع الدين في اطار هذه الفلسفة ، يؤكد وليم جيمس ان الدين ضروري للانسان بمقدار ما يجعله مرتبطا بعالم اسْمى ، يفرض عليه اخلاقيات فاضلة ، ويزوده بامل في المستقبل ، ويحثه على الصبر الذي يساعده على تحمل مصاعب الحياة والتغلب على عقباتها . لكن الدين ليس جدلا وصراعا وخلافات بين علمائه ومن خلفهم التابع ، وانما هو تجربة انسانية يعيشها بعمق كل انسان متشبها ما فيها من عصارة روحية مركزة ، وهو باختصار من الوقائع الموجودة بالفعل في حياة البشر ، يقدم لهم خدمة عملية هامة .

هذه هي الفلسفة المستقرة في عقل الشعب المامريكي ، والتي ينبغي ان يلم بها كل من يريد ان يتعامل معه . ومنها يمكن ان نفهم ونفسر في نفس الوقت سلوكه الذي يتصرف به وقراراته التي يتخذها . لكن قد تكون هناك بعض التجاوزات او حتى الانحرافات ، لكن يبقى ان البراجماتية تصل الى المطلوب من اقصر الطرق ، وتستعين بالمنهج التجريبي في التحقق من صحة الافكار ، وتستبعد الجدل والمناقشات النظرية التي تستهلك الوقت والجهد ، وتؤكد على ما يخدم الناس في حياتهم العملية .. وليس كما شاع عن هذه الفلسفة في ثقافتنا المصرية والعربية انها فلسفة نفعية خالصة !